الفصل السابع عشر

الاستراتيجية الظاهراتية (الفينومنولوجية)

«نظرة نقدية وتقويم للاستراتيجية»

١ ـ الاستراتيجية الظاهراتية محدودة الهدف والنظرة.
ـ التحليل الظاهراتي يزودنا بنظرة مبسطة للشخصية.
٢ ـ النظرية الظاهراتية للشخصية لا تشرح بدقة نمو الشخصية وتطورها.
٣ ـ يعتمد علماء النفس الظاهراتيون كثيراً على تقارير الذات.
٤ ـ إن النظرية الظاهراتية للشخصية وصفيَّة أكثر منها استقصائية.
٥ ـ الاتجاه أو الطريقة الظاهراتية بسيطة ورومانطيقية.

نظـرة نقديـة وتقويـم للاستراتيجيـة الظاهراتيـة

بعد شرحنا للاستراتيجية الظاهراتية كما مثَّلها علماء النفس ، سوف نناقش الآن خمسة انتقادات رئيسية وجهت لهذه الطريقة(الاتجاه) في بحث الشخصية ، وسنشرح هذه الانتقادات.

١ ـ الاستراتيجية الظاهراتية محددة الهدف والنظرة

إن الاستراتيجية الظاهراتية محدودة ومقيدة بفرضين أساسيين هما: الخبرة الشعورية والحاضرة (الآنية) ، وإن هذا كافٍ لتفهم الشخصية.

إن تركيز هذه الطريقة على الخبرة الشعورية ، يعني التعامل مع مظاهر السلوك التي تعتبر الأساس والمركز في البحوث النفسية (والمقصود بمظاهر السلوك ، الخبرات الذاتية الخاصة) إنها تتفق مع الحس أو الذوق العام حول الشخصية. إن هذه الاستراتيجية تخرج من نطاق دراستها الأحداث التي لا يعيها الفرد حالياً. فهل يمكن التنبؤ بالسلوك بدقة إذا عرفنا فقط ما يعيه ويشعر به الفرد حالياً إن العديد من علماء نفس الشخصية سيقول «لا». ويناقش علماء النفس بشدة أن الأحداث اللاشعورية ـ وحتى الآنية والعابرة ـ تعمل على تشكيل جوهر الشخصية ، كما أنها تلعب دوراً هاماً في تحديد السلوك وتوجيهه. هل يمكن شرح الأفعال بدون الرجوع إلى الخبرات الماضية هنا ثانية ، يجيب علماء نفس الشخصية بـ «لا» إنهم

يجادلون بأن معرفة الخبرات السابقة هو أمر جوهري وضروري من أجل التنبؤ بسلوك فرد ما وتفهم شخصيته. إن النظرية الظاهراتية للشخصية محدودة بسبب تجاهلها تأثير الماضي Ignoring the Influence of past إنها بدل من ذلك ، تركز على الخبرات الشخصية الحالية. ومن الواضح أن هذه هي إحدى نقاط الضعف فيها إنها عكس النظرية التحليلية (الفرويدية) التي تشدد على خبرات الفرد الماضية. وهكذا فإن كلا منهما (التحليلية الفرويدية والظاهراتية) تهمل متغيراً هاماً يتعلق بالزمن. بالطبع فإن الظاهراتية تبين أن الماضي يؤثر في خبرات الفرد الحالية ، ولكنها لا تعير ذلك أهمية تذكر. كما أنها لا تشرح مدى وطبيعة هذا التأثير. وفوق ذلك لا تحاول فحص خبرات الفرد الماضية. وهذا يصدق حتى عندما تتعلق خبرات الفرد مباشرة بخبراته الحالية. لقد افترض أنه إذا كانت الخبرة الماضية لها أهميتها بالنسبة للحاضر ، فسوف يظهر هذا في خبرات الشخص الحاضرة. ويعني هذا أنه لا حاجة لفحص الخبرات الماضية والمبكرة. ويعتقد علماء النفس الظاهراتيون أيضاً ، أن الشكل الذي تظهر فيه الخبرة المبكرة الماضية في الحاضر هي كل ما يجب دراسته لفهم وظائف الشخصية الحالية. إن هذه الافتراضات غير مثبتة وغير مبرهن عليها.

هناك نظريتان رئيسيتان في الاستراتيجية الظاهراتية ، تتميزان بثغرات أو نقاط ضعف متشابهة (متماثلة) هذه الثغرات ناتجة عن طريقتي روجرز وكيلي. فنظرية روجرز ، تشدِّد على المظاهر الانفعالية للسلوك الإنساني. إنها تتجاهل المظاهر العقلية والفكرية كما أن كيلي أيضاً يشدِّد (على العكس من روجرز) على العمليات المعرفية والعقلية في نظرية البناء الشخصي ويهمل الانفعالية.

التحليل الظاهراتي يزودنا بنظرة مبسَّطة للشخصية :

غالباً يعمل علماء النفس الظاهراتيون على نقد نظريات الشخصية

الأخرى (غير الظاهراتية) بأنها مبسطة أو مبالغة بالتبسيط oversimplified على كل فإن الظاهراتيين أنفسهم أيضاً ، يتميزون بالتبسيط إنهم استخدموا مبادىء بسيطة وفردية ، فمفهوم مثل «الميل لتحقيق الذات» أو «التنبؤ بالأحداث المقبلة» تم تقييمها والاعتماد عليها في تفسير كل أشكال السلوك الإنساني. مثل هذا البديل يزودنا بقياسات وتقديرات قليلة جداً فيما يتعلق بتعقيد السلوك الإنساني (وايلي ١٩٦٨).

إن الافتراضات الأساسية لنظريات الشخصية الثلاثة الظاهراتية (روجرز ، كيلي ، ماسلو) التي شرحناها ، يمكن إجمالها في جملتين ، (وهذا يصدق على النظريات الثلاث): إن لكلٍّ نظرية منها فكرة جوهرية فريدة ومميزة عن طبيعة الشخصية ، واستناداً إلى هذه الفكرة ، نظمت نظرية موسعة في الشخصية. قد يكون هذا أسهل لتفهمها. إضافة إلى أن كلاً منها يضفي على النظرية صفة الثبات الداخلي. ولكن هذا قد يكون ناتجاً عن التبسيط الشديد غير المناسب لدراسة موضوع معقد كمبحث الشخصية الإنسانية. إن هذه النظريات (الظاهراتية) لا تبحث في تعقد أي من مفاهيمها الرئيسية المركزية وخاصة مفهوم «الذات» «Self» إن تحليل الذات باستعمال تقنيات التقويم والقياس مثل اختبار «Qsort» وكذلك اختبار «Rep - test» يزودنا بتأملات باهتة للخبرات الأساسية التي تحاول هذه النظريات والطرق شرحها.

٢ ـ النظرية الظاهراتية في الشخصية لا تشرح بدقة نمو الشخصية وتطورها

إن نظرية البناء الشخصي لجورج كيلي ، لا تقول إلا القليل جداً عن كيفية نمو الشخصية إن الشرح الذي تبينه حول ذلك ، عام جداً. بحيث يقلل من فائدة استعماله.

إن كيلي لا يعتقد بأن الناس يولدون وهم مزوَّدون ببناءات وتراكيب constructs شخصية. وإنما تنمو هذه البناءات وتتطور من خلال خبرات

الفرد وهذا يفترض أن الخبرات لا تبدأ حتى الولادة. ويشدد كيلي على أن البناءات تكتسب من بداية الحياة المبكرة ، ولكنه لا يوضح كيف تنمو. إن نظريته لا تصلح إلا للشخص الذي امتلك خبرة معينة يجب النظر فيها. وعلى العكس من كيلي ، فإن روجرز يوضح في نظريته تفصيلاً عن نمو الشخصية ، كالعلاقة بين مفهوم الذات وشروط الاستحقاق ، وبالرغم من أن هذه العملية النمائية ليست واضحة مثلاً ، ينمو مفهوم الذات كجزء من نزعة الفرد للاختلاف أثناء تحقيق الذات ولكن هناك غير هذه النزعة ، يعتبر مسؤولاً أيضاً عن الاختلاف في السلوك والوظائف النفسية. إن نظرية روجرز لا توضِّح إلا القليل عن ذلك.

وهناك مشكلة أخرى في نظريته وهي المتعلقة بمفاهيم نمو الشخصية ، حيث لا توجد براهين تجريبية تثبت افتراضاته لقد قام روجرز ببحوث كثيرة حول العلاج النفسي وتغير الشخصية ، ولكن لا توجد دراسات موازية حول نمو الشخصية بشكل موجز ، إن نظرية روجرز في نمو الشخصية غامضة وغير محددة كما أنها بحاجة إلى اختبارات وإثباتات تجريبية.

أما بالنسبة للتسلسل الهرمي للحاجات عند ماسلو ، فهي دوافع فطرية موروثة Inborn وتنمو أو تتغير من خلال محاولات الفرد لإشباعها. إن نظرية ماسلو لا توضح ما الذي يقود إلى هذا التغير سواء في الحاجات ذاتها أم في الشخص الذي يعمل على إشباعها.

٣ ـ يعتمد علماء النفس الظاهراتيون كثيراً على تقرير الذات

إن هدف التقويم التشخيصي الظاهراتي للشخصية ، هو معرفة خبرات الفرد الخاصة. وتفهم السلوك من وجهة نظر الفرد نفسه وإطاره المرجعي الخاص وبالتعريف ، فإن الفرد وحده هو الذي يملك معرفة مباشرة بخبراته الذاتية. وفوق ذلك ، فإن تقويم الشخصية وتشخيصها يعتمد

بالكامل على أسلوب تقارير الذات لقد افترض أن الشخص قادرٌ على وصف خبراته الخاصة بدقة. ولكننا نقول بأن هناك عوامل تثير الشك في صدق هذا الافتراض وبالتالي تقارير الذات التي يعتمدها العلماء أصحاب هذه الاستراتيجية في الشخصية فالناس ليسوا دوماً قادرين أو يريدون التعبير عن خبراتهم الذاتية ، فقد لا يظهر الشخص إلا بعضاً من المظاهر المرغوبة لشخصيته. ولكن المفحوص قد يظهر الكثير من خبراته الذاتية ، عندما يثق بالفاحص ، كما أن بناء العلاقة بين الفاحص والمفحوص يستغرق زمناً ، إن كلاً من البحوث النفسية والملاحظات اليومية والإكلينيكية ، تفترض أن تقارير الذات قد تقدم معلومات مشوهة فالناس يميلون لإظهار ما يريدون إظهاره والتعبير عنه ، ويعني ذلك أنهم يشوهون صورة شخصيتهم بحيث تبدو في الشكل المرغوب به أو المفضّل.

٤ ـ النظرية الظاهراتية في الشخصية وصفيّة أكثر منها استقصائية

إن النظرية الظاهراتية في الشخصية تزود بوصفٍ أكثر منه بشرح أو تفسير للسلوك. وهذا نقد رئيسي يوجه لهذه الاستراتيجية. فالمفاهيم الافتراضية الأساسية فيها مثل الذات ، والبناء الشخصي ، لها أساس استقصائي وتفسيري جزئي فقط ، وربما نقول إن فلاناً يسلك بطريقة معينة بسبب من البناءات الشخصية التي يستعملها للتنبؤ بالأحداث وتفسيرها ولكن هذا لا يشرح أفعال الشخص حتى يتم تقييم نزعته لتحقيق الذات أو البناء الشخصي (تفسيره) عنده إن البناءات الشخصية وتحقيق الذات ، مفاهيم وتراكيب افتراضية نظرية لا تجيب عن أسئلة مثل: ما هي الشروط المسؤولة لميل الشخص نحو البناء الشخصي ونحو تحقيق الذات؟

إن النظرية تزودنا بوصف للسلوك بدون تحديد الشروط التي تفسِّر هذا السلوك وتسبِّبه كما أنها لا تشير للمتحولات التي تؤثر في البناءات النظرية التي افترض أنها مسؤولة مباشرة عن السلوك في مثل هذه الحالات يكون

التنبؤ صعباً إذا لم يكن مستحيلاً. من جهة ثانية ، فإن ماسلو لم يذهب مطلقاً لحل المشكلة «المعضلة» الأساسية للتعريف. إنه يعرف ، سلفاً ، أن شخصاً ما قد حقق ذاته ، ثم يدرس هذا الشخص ، وأخيراً يصف خصائصه وصفاته.

فالاستراتيجية الظاهراتية مقبولة كنقطة بداية ، ولكن من الضروري النظر فيما إذا كانت المعلومات الجديدة المجمَّعة حول الشخص الذي يحقق ذاته ، يمكن التنبؤ عن طريقها بالصفات الأخرى والسلوك ، وخاصة إذا استخدمت مع عينات جديدة من الناس والمفحوصين. لسوء الحظ فإن ماسلو لم يذهب أبعد من نقطة البدء في بحوثه.

إن نظرية كيلي عن البناء الشخصي ، تعاني أيضاً من نقطة الضعف ذاتها. وهي أنها وصفية أكثر منها استقصائية وتفسيرية. فمعرفة الناس الذين يجاهدون من أجل التنبؤ الدقيق بالأحداث ، لا تقول لنا إلا القليل جداً عن توجه السلوك. وكما يقدر كيلي ، فإن عند الشخص عدداً كبيراً من الطرق البديلة لتفسير الأحداث والتنبؤ بها.

٥ ـ الاتجاه أو الطريقة الظاهراتية بسيطة ورومانطيقية

إن الانتقاد المتكرر للاتجاه الظاهراتي في الشخصية هو أنها رومانطيقية وساذجة بسيطة في تفسير الوجود الإنساني مثلاً ، ينتقد ميلون (١٩٦٧) الفهم المثالي لعلماء النفس الظاهراتيين حول طبيعتنا الفطرية والموروثة لكي نكون عادلين يجب القول بأن كلاً من روجرز وماسلو قد مثَّلا النظرة التفاؤلية للشخصية الإنسانية بتشديدهما على المظاهر الخلاَّقة والإبداعية الإيجابية في الإنسان (وهذا على العكس من التحليل النفسي تماماً) ولكن نظرتهما الإيجابية هذه كانت مثالية حول الطبيعة الإنسانية.

إن نظرتهما تقول الكثير عن «كيف يجب أن يكون الإنسان» أكثر من

القول عن «كيف هو بالواقع» مثل هذه النظرة الرومانسية ليس لها مكان في الدراسة العلمية للشخصية. بالواقع فإن نظرية روجرز تبدو أحياناً أكثر فلسفية وحتى (دينية) منها سيكولوجية. وهناك جانب آخر لا تنطبق عليه الدراسة العلمية في علم النفس. وهو أن موضوع البحث في الاستراتيجية الظاهراتية هو الخبرة الذاتية ، وبالتعريف هي يتم التعرف عليها فقط من قبل الشخص المفحوص. إن علم النفس (العلمي) أي الدراسة العلمية في السيكولوجية ، يتطلب القبول والاتفاق بين الملاحظين والباحثين وكذلك تطابق النتائج عند إعادة البحث. ومن الواضح أن من غير الممكن أن تحصل موافقة موضوعية حول خبرة ذاتية.

في الواقع إن الموضوعية «وهي أساس العلم» تعتبر أخلاقية في الاتجاه الظاهراتي. إن التطابق الموضوعي للملاحظات وتكرارها يميِّز الطريقة السيكولوجية لدراسة الإنسان عن الطرائق الأدبية والفلسفية والدينية. وهكذا يمكننا القول بأن الاستراتيجية الظاهراتية مثل التحليلية النفسية ، تبدو أنها تعارض التوجهات الأساسية لعلم النفس العلمي.

* * *